الباب السابع: في البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول

الفصل الأول: في البيان والبلاغة

أما البيان فقد قال الله تعالى: ﴿الرحمٰن * علم القرآن * خَلَقَ الإنسانَ * عَلَّمَهُ البيانَ﴾[1] وقال ﷺ: «إن من البيان لسحراً». قال ابن المعتز: البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وأما حده فقد قال الجاحظ: البيان اسم جامع لكل ما كشف لك من المعنى، وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هي أن يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله، قال الله تعالى: ﴿فإذا بَلَغْنَ أجَلَهُنَّ فأمسِكُوهُنَّ بمعروفٍ﴾[2] وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿أم لكم أيْمانٌ علينا بالغةٌ﴾[3] أي وثيقة كأنها قد بلغت النهاية، وقال اليوناني: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال الهندي: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقال الكندي: يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ، كثير المعاني. وقيل: إن معاوية سأل عمرو بن العاص: مَنْ أبلغُ الناس، فقال: أقلهم لفظاً، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة، ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم ﷺ وافتخر به حيث يقول: «نُصِرْتُ بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم»، وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة.

وقيل: ثلاثة تدل على عقول أصحابها، الرسول على عقل المرسل، والهدية على عقل المهدي، والكتاب على عقل الكاتب. وقال أبو عبد اللّٰه وزير المهدي: البلاغة ما فهمته العامة، ورضيت به الخاصة. وقال البحتري: خير الكلام ما قل وجل[4] ودل ولم يمل. وقالوا: البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان، ولا يسلك إلا ببصائر البيان. وقال الشاعر:

لـك البـلاغـة ميـدانٌ نشَـأتَ بـهِ ... وكلُّنـا بقصـورٍ[5] عنـك نعتـرفُ
مَهِّـدْ لـيَ العـذرَ فـي نَظْـمٍ بَعَثْـتُ بـهِ ... مَـنْ عنـده الـدرُّ لا يُهْـدَى لـه الصَّـدَفُ

وروى أن ليلى الإخيلية مدحت الحجاج فقال: يا غلام إذهب إلى فلان فقل له يقطع لسانها. قال: فطلب

---

(١) سورة: الرحمٰن، الآيات: ١ ـ ٤.
(٢) سورة: الطلاق، الآية: ٢.
(٣) سورة: القلم، الآية: ٣٩.
(٤) جَلّ: عظُم.
(٥) قصور: عجز وتقصير.

حجاماً فقالت: ثكلتك أمك إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة. فلولا تبصرها بأنحاء الكلام، ومذاهب العرب، والتوسعة في اللفظ، ومعاني الخطاب لتم عليها جهل هذا الرجل. وقال الثعالبي: البليغ من يحول الكلام على حسب الأمالي، ويخيط الألفاظ على قدر المعاني، والكلام البليغ ما كان لفظه فحلاً، ومعناه بكراً. وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه في حد البلاغة: إنها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه، مع الاحتراز عن الإيجاز المخل، والتطويل الممل، ولهذه الأصول شُعَبٌ وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر. وبالله التوفيق إلى أقوم طريق.

الفصل الثاني: في الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه: إعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد، وأصلها من قولهم أفصح للبن، إذا أخذت عنه الرغوة، وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة، بل يستعملونها استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد في تسوية الحكم بينهما. ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ، ويستدل بقولهم معنى بليغ، ولفظ صحيح. وقال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم في صدري، وإن قصر سقط من عيني. وقد اختلف الناس في الفصاحة فمنهم مَنْ قال إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، ومنهم مَنْ قال إنها لا تخصُّ إلا الألفاظ وحدها. واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال: نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح، وهذه الألفاظ فصيحة، ولا نرى قائلاً يقول هذا معنى فصيح، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني. وإن قلنا إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح وذلك غير مألوف في كلام الناس. والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحاً حسناً. ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة والمعيب من ذلك كقول القائل:

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما ... كنا وكنت ولكن ذاك لم يَكُنِ[١]

وكقول بعضهم أيضاً:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ... ولا ضعف الضعف بل مثله ألف[٢]

وكقول الآخر:

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر[٣]

قيل إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلاً في النطق به. وقيل مَنْ عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار. وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر، وملك زمام الأمور، واطلعه ملكها على الخفي من أمره والمستور. قال الشاعر:

---

(١) البيت في الغالب مصنوع وهو مثال لفساد اللفظ بسبب توالي حرف الكاف فيه.
(٢) شأنها شأن سابقها في فساد التركيب.
(٣) نفس المصدر السابق.

لسان الفتى نصفٌ ونصف فؤادُه ولم يَبْقَ إلا صورةُ اللحمِ والدمِ

وسمع النبي ﷺ من عمه العباس كلاماً فصيحاً فقال: بارك الله لك يا عم في جمالك، أي فصاحتك. وعرضت على المتوكل جارية شاعرة فقال أبو العيناء يستجيزها: أحمد الله كثيراً، فقالت: حيث أنشاك ضريراً. فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشتَرِهَا. وقال فيلسوف: كما إن الآنية تمتحن بأطنانها، فيعرف صحيحها من مكسورها، فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقه. وقال المبرد: قلت للمجنون أجزني هذا البيت.

أرى اليوم يوماً قد تكاثف غيمه وإبراقه فاليوم لا شك ماطرُ

فقال:

وقد حجبَتْ فيه السحائبُ شَمْسَهُ كما حَجَبَتْ وَرْدَ الخدود المحاجرُ

وقال عبد الملك لرجل: حدثني، فقال: يا أمير المؤمنين افتتح، فإن الحديث يفتح بعضه بعضاً. وقال الهيثم بن صالح لابنه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال: يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت. يعني كلاماً وصواباً، قال: يا بني ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك. وقال الشعبي: كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة، فأقول: أجزها أصلحك الله، فإن الحديث من وراء ذلك. فيقول: والله لحديثك أحب إليّ منها، وقال ابن عيينة: الصمت منام العلم، والنطق يقظته ولا منام إلا بتيقظ، ولا يقظة إلا بمنام. قال ابن المبارك.

وهذا اللسانُ بريدُ الفؤادِ يدلُّ الرجالَ على عقله

ومر رجل بأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ومعه ثوب فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أتبيعه؟ فقال: لا رحمك الله، فقال أبو بكر: لو تستقيمون لقومت لستكم هلاّ قلت لا ورحمك الله. ومنه ما حكي أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء فقال: لا، وأيد الله أمير المؤمنين. فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها. وكان الصاحب يقول: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ. ويقال اللسان سبع صغير الجرم. وقال بعضهم شعراً:

سحبان[1] يقصرُ عن بحور بيانِهِ عجزاً ويغرقُ منه تحت عباب
وكذاك قس[2] ناطقٌ بعكاظه يعيا لديه بحجَّةٍ وجوابِ

وقيل؛ إنه حج مع ابن المنكدر شابان فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالا: قد أبرقنا وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يفطن فرأيا قبة فيها امرأة، فقالا: بارقة. وكانت قبيحة فقال ابن المنكدر: بل صاعقة. وكان أصحاب أبي علي الثقفي إذا رأوا امرأة جميلة يقولون حُجة[3]، فعرضت لهم قبيحة فقالوا: داحضة[4] وكتب إبراهيم بن المهدي: إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإن ذلك العناء الأكبر، وعليك بما سهل من تجنبك الألفاظ السفل. ويقال: القول على حسب همة القائل يقع، والسيف بقدر عضد الضارب يقطع. وقال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر حتى

(١) سحبان وائل: رجل ضرب به المثل في الفصاحة.
(٢) قس بن ساعدة: من أشهر خطباء عكاظ.
(٣) الحُجة: الآية والبرهان.
(٤) الداحضة: نقيض الحجة أو الباطلة منها، وهاتان من ألفاظ أهل الكلام كما ترى.

مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان حتى مضى، وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم. لا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة. وقال معاوية رضي الله تعالى عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها، ما أغلقت باباً فأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت باباً فأرادت إغلاقه إلا أغلقته.

ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الزمر وهو من الذكاء، والفصاحة، ما حكي أن رجلاً كان أسيراً في بني بكر بن وائل، وعزموا على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه، فقالوا: لا نرسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم، فجاؤوا بعبد أسود فقال له: أتعقل ما أقوله لك؟ قال نعم: إني لعاقل، فأشار بيده إلى الليل فقال: ما هذا؟ قال: الليل. قال: ما أراك إلا عاقلاً. ثم ملأ كفيه من الرمل وقال: كم هذا؟ قال: لا أدري وإنه لكثير. فقال: أيما أكثر النجوم أم النيران؟ قال: كلٌّ كثير. فقال: أبلغ قومي التحية، وقل لهم يكرموا فلاناً يعني أسيراً كان في أيديهم من بني بكر بن وائل، فإن قومه لي مكرمون، وقل لهم إن العرفج قد دنا، وشكت النساء، وأمرهم أن يعرّوا ناقتي الحمراء، فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب، بأمارة ما أكلت معكم حيساً[١]، واسألوا عن خبري أخي الحارث. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جن الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء، ولا جملاً أصهب. ثم دعوا بأخيه الحارث فقصوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم؛ أما قوله قد دنا العرفج، يريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح، وأما قوله شكت النساء، أي أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله أعروا ناقتي الحمراء، أي ارتحلوا عن الدهناء[٢] واركبوا الجمل الأصهب، أي الجبل، وأما قوله أكلت معكم حيساً، أي إن أخلاطاً من الناس قد عزموا على غزوكم، لأن الحيس يجمع التمر والسمن والإقط، فامتثلوا لأمره، وعرفوا لحن الكلام، وعملوا به فنجوا.

وأسرت طيِّىء غلاماً من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشتطوا[٣] عليه، أبوه: والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصحبان على جبل طيِّىء ما عندي غير ما بذلته، ثم انصرف وقال: لقد أعطيته كلاماً إن كان فيه خير فهمه. فكأنه قال له: الزم الفرقدين، يعني في هروبك على جبل طيِّىء، ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجا. وكانت عليَّة بنت المهدي تهوى غلاماً خادماً اسمه طلّ، فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره في شعرها، فاطلع الرشيد يوماً عليها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة ﴿فإن لم يصبها وابل﴾[٤] فالذي نهى عنه أمير المؤمنين. ومن ذلك قولهم تركت فلاناً يأمر وينهى وهو على شرف الموت، أي يأمر بالوصية، وينهى عن النوح.

ويقال: ما رأيت فلاناً أي ما ضربته في رتّه ولا كلمته، أي ما جرحته، فإن الكلوم الجراح، وما رأيت ربيعاً، فالربيع حظ الأرض من الماء، والربيع النهر، وما رأيت كافراً ولا فاسقاً فالكافر السحاب، والفاسق الذي تجرد من ثيابه، وما رأيت فلاناً راكعاً ولا ساجداً ولا مصلياً، فالراكع العاثر الذي كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلي الذي يجيء بعد السابق، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجاً، فالدجاجة الكبة من الغزل، والفروجة الدراعة، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثوراً، فالبقرة العيال الكثيرة، يقال جاء فلان يسوق بقره أي عياله، والثور القطعة الكبيرة من الإقط[٥].

---

(١) الحيس: من الحواسة: الأخلاط من الناس، وتأتي لأخلاط من الطعام.
(٢) الدهناء: الأرض المنبسطة.
(٣) اشتطوا: غالوا واصعبوا.
(٤) سورة: البقرة، الآية: ٢٦٥.
(٥) الإقط: هذه ضروب من التوريات التي أوردها ابن دريد في كتابه «الملاحن»، ويقصد بها إلى اليمين غير الحانثة.

وحكي أن معاوية رضي الله عنه بينما هو جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس، فيهم الأحنف بن قيس، إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً، وكان آخر كلامه أن لعن علياً رضي الله تعالى عنه ولعن لاعنه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين وَدَعْ عنك علياً رضي الله تعالى عنه، فلقد لقي ربه، وأفرد في قبره، وخلا بعمله، وكان والله المبرور سيفه، الطاهر ثوبه، العظيمة مصيبته. فقال معاوية: يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وأيم الله لتصعدَنَّ على المنبر فتلعنه طوعاً أو كرهاً فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خير لك، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري شفتاي به أبداً. فقال: قم فاصعد. قال: أما والله لأنصفتك في القول والفعل. قال: وما أنت قائل إن انصفتني؟ قال: أصعد المنبر فأحمد الله وأثني عليه وأصلي على نبيه محمد ﷺ ثم أقول: يا أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً ألا وإن معاوية وعلياً اقتتلا فاختلفا فادَّعى كلٌّ واحد منهما أنه مبغيّ عليه، وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهم العنهم لعناً كثيراً أمنّو[1] رحمكم الله. يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفا ولو كان فيه ذهاب روحي. فقال معاوية: إذاً نعفيك يا أبا بحر.

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن علياً قد قطعك، وأنا وصلتك ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر قال: أفعل. فصعد المنبر ثم قال بعد أن حمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ: أيها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب فالعنوه فعليه لعنة الله. ثم نزل فقال له معاوية: إنك لم تبين من لعنت منهما بينه، فقال: والله لا زدت حرفاً ولا نقصت حرفاً، والكلام إلى نية المتكلم.

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقال: يا أمير المؤمنين أقر الله عينك، وفرحك بما أتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت. فقال لها: مَنْ تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك ممن قلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم، فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك. ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها وفرحك بما أتاك فأخذته من قوله تعالى: ﴿حتى إذا فرحُوا بما أوتُوا أخَذْناهم بَغْتَةً﴾[2] وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

إذا تـــمَّ أمـــرٌ بَـــدَا نَقْصُـــهُ تَـــرَقَّـــبْ زوالاً إذا قيـــل تـــمّ

وأما قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وأما القاسِطُون فكانوا لجهنَّمَ حَطَباً﴾[3] فتعجبوا من ذلك.

وحكي أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى فقال له: أطال الله بقاءك، وأقر عينك، وجعل يومي قبل

(١) أمّنوا: قولوا آمين.
(٢) سورة: الأنعام، الآية: ٤٤.
(٣) سورة: الجن، الآية: ١٥.

يومك، والله إنه ليسرني ما يسرك، فأحسن إليه وأجازه على دعائه وأمر له بصلة وكان ذلك دعاء عليه. لأن معنى قوله: أطال الله بقاءك، حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية؛ وأما قوله: وأقر عينك فمعناه سكن الله حركتها، أي أعماها، وأما قوله: وجعل يومي قبل يومك، أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنة، قبل يومك الذي تدخل فيه النار؛ وأما قوله: إنه ليسرني ما يسرك، فإن العافية تسرُّه كما تسرُّه الآخرة. فانظر إلى الاشترك وفائدته. ولولا الاشتراك ما تهيأ لمتستر مراد، ولا سلم له في التخلص قياد.

وكان حماد الراوية لا يقرأ القرآن فكلفه بعض الخلفاء القراءة في المصحف، فصحف في نيف وعشرين موضعاً من جملتها قوله تعالى: ﴿وأوْحى ربُّك إلى النحلِ أن اتَّخذي من الجبالِ بيوتاً ومن الشَّجَر ومما يَعْرِشُون﴾[١]، بالغين المعجمة والسين المهملة وقوله: ﴿وما كان استغفارُ إبراهيم لأبيه إلا عن مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إياه﴾[٢] بالباء الموحدة ﴿ليكون لهم عدوّاً وحزناً﴾[٣] بالباء الموحدة. ﴿وما يجحدُ بآياتنا إلا كلُّ خَتَّارٍ﴾[٤] بالجيم والباء الموحدة. ﴿هم أحسنُ أثاثاً وَرِءْياً﴾[٥] بالزاي وترك الهمزة. ﴿عذابي أصِيبُ به مَنْ أشاءُ﴾[٦] بالسين المهملة ﴿صِبغةَ الله ومَنْ أحسنُ من الله صبغةً﴾[٧] بالنون والعين المهملة. ﴿سلام عليكم لا نبتغي﴾[٨] بإسقاط التاء. ﴿بل الذين كفروا في عزَّةٍ وشقاقٍ﴾[٩] بالغين المعجمة، والراء المهملة، قرن الشقاق بالغرة وهذا لا يقع إلا من الأذكياء.

وحكي أن المأمون ولّى عاملاً على بلاد، وكان يعرف منه الجور في حكمه، فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولته ليمتحنه، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين، عنده علم منه، فأكرم نزله، وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة. فكتب كتاباً فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين، أما بعد: فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذاً بالعزم، عاملاً بالحزم، قد عدل بين رعيته، وساوى في أقضيته، أغنى القاصد، وأرضى الوارد، وأنزلهم منه منازل الأولاد. وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد، وعمر منهم المساجد الداثرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين، يريدون النظر إلى وجهه والسلام. فكان معنى قوله آخذاً بالعزم أي إذا عزم على ظلم أو جور فعله في الحال، وقوله قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته، أي أخذ كل ما معهم، حتى ساوى بين الغني والفقير، وقوله عمر منهم المساجد الداثرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، يعني أن الكل صاروا فقراء، لا يملكون شيئاً من الدنيا، ومعنى قوله يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين، أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم، فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته وولّى عليهم غيره.

---

(١) سورة: النحل، الآية: ٦٨.
(٢) سورة: التوبة، الآية: ١١٤.
(٣) سورة: القصص، الآية: ٨.
(٤) سورة: لقمان، الآية: ٣٢. الختار: الغدار.
(٥) سورة: مريم، الآية: ٧٤. ووئياً: مظهراً.
(٦) سورة: الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٧) سورة: البقرة، الآية: ١٣٨.
(٨) سورة: القصص، الآية: ٥٥.
(٩) سورة: ص، الاية: ٢.

ومن ذلك ما حكي: أن القاضي الفاضل كان له صديق خصيص به، وكان صديقه هذا قريباً من الملك الناصر صلاح الدين، وكان فيه فضيلة تامة، فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه وهَمَّ بقتله، فتسحَّب إلى بلاد التتر، وتوصَّل إلى أن صار وزيراً عندهم، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه. فلما بلغه ذلك نفر منه، وقال للفاضل اكتب إليه كتاباً عَرِّفْهُ فيه أنني أرضى عليه، واستعطفه غاية الاستعطاف، إلى أن يحضر فإذا حضر قتلته واسترحت منه. فتحير الفاضل بين الاثنين، صديقه يعزُّ عليه، والملك لا يمكنه مخالفته، فكتب إليه كتاباً واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي ﷺ، وكتب إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب، فشدَّد «إن»، ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه في غاية الكمال، وما فهم إن، وكان قصد الفاضل ﴿إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾[1] فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً، فلما أراد أن ينهي الكتاب ويكتب إن شاء الله تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفاً، وأراد بذلك ﴿إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها﴾[2] فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك.

وحكي: أن بعض الملوك طلع يوماً إلى أعلى قصره يتفرج فلاحت منه التفاتة فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراؤون أحسنَ منها، فالتفت إلى بعض جواريه فقال لها: لمن هذه، فقالت: يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز، قال: فنزل الملك وقد خامره حبها، وشغف بها فاستدعى بفيروز وقال له: يا فيروز، قال: لبيك يا مولاي، قال: خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلاد الفلانية وائتني بالجواب. فأخذ فيروز الكتاب وتوجَّه إلى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه، وجهز أمره وبات ليلته، فلما أصبح ودَّع أهله وسار طالباً لحاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك. وأما الملك فإنه لما توجه فيروز، قام مسرعاً وتوجه مختفياً إلى دار فيروز فقرع الباب قرعاً خفيفاً، فقالت امرأة فيروز: مَنْ بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت له فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا. فقال: زائراً. فقالت: أعوذ بالله من هذه الزيارة، وما أظن فيها خيراً، فقال لها: ويحك إنني أنا الملك سيد زوجك وما أظنك عرفتني، فقالت: بل عرفتك يا مولاي ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءَكُم من غيرِ وردٍ ... وذاك لكثرة الوراد فيهِ
إذا سقط الذبابُ على طعام ... رفَعْتُ يدي ونفسي تشتهيهِ
وتَجْتَنِبُ الأسُودُ ورودَ ماءٍ ... إذا كان الكلابُ وَلَغْنَ فيهِ
ويرتجع الكريم خميصَ بطنٍ ... ولا يَرْضى مساهمةَ السَّفيهِ

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قل للذي شَفَّهُ الغرامُ بنا ... وصاحبُ الغدرِ غيرُ مصحوبِ
والله لا قائل ابداً ... قد أكل الليث فضلة الذيبِ

(١) سورة: القصص، الآية: ٢٠.
(٢) سورة: المائدة، الآية: ٢٤.

ثم قالت: أيها الملك تأتي إلى موضع شُرْبِ كلبك تشرب منه. قال: فاستحيا الملك من كلامها، وخرج وتركها فنسي نعله في الدار.

هذا ما كان من الملك. وأما ما كان من فيروز فإنه لما خرج وسار تفقَّد الكتاب فلم يجده معه في رأسه فتذكَّر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره، فوجد نعل الملك في الدار فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلاماً، وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك فقضاها ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار. فمضى فيروز إلى السوق واشترى ما يليق بالنساء وهيأ هدية حسنة وأتى إلى زوجته فسلم عليها وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت: وما ذاك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهري لأهلك ذلك. قالت: حباً وكرامة. ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها مدة شهر فلم يذكرها زوجها، ولا ألمَّ بها فأتى إليه أخوها وقال له: يا فيروز، إمّا أن تخبرنا بسبب غضبك، وإمّا أن تحاكمنا إلى الملك، فقال إن شئتم الحكم فافعلوا فما تركت لها عليّ حقاً، فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم وكان القاضي إذا ذاك عند الملك جالساً إلى جانبه، فقال أخو الصبية: أيد اللهمولانا قاضي القضاة إني أجرت هذا الغلام بستاناً، سالم الحيطان، ببئر ماء معين عامرة، وأشجار مثمرة، فأكل ثمره وهدم حيطانه، وأخرب بئره. فالتفت القاضي إلى فيروز وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان. فقال القاضي: هل سلم إليك البستان كما كان، قال: نعم. ولكن أريد منه السبب لرده، قال القاضي: ما قولك؟ قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه، وإنما جئت يوماً من الأيام، فوجدت فيه أثر الأسد فخفت أن يغتالني فحرمت دخول البستان إكراماً للأسد.

قال: وكان الملك متكئاً فاستوى جالساً وقال: يا فيروز إرجع إلى بستانك آمناً مطمئناً، فوالله إن الأسد دخل البستان، ولم يؤثر فيه أثراً، ولا التمس منه ورقاً، ولا ثمراً، ولا شيئاً ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس، والله ما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجره. قال: فرجع فيروز إلى داره وردَّ زوجته ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك. والله أعلم.

وهذا كله مما يأتي به الإنسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز، ومنه ما يجده المتستر في أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق، ورضا الخصم بما وافق مراده لأن في المعاريض مندوحة عن الكذب. كما روي في غزوة بدر أن النبي ﷺ كان سائراً بأصحابه يقصد بدراً فلقيهم رجل من العرب فقال: ممن القوم؟ فقال له النبي ﷺ من ماء، فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول: من ماء، من ماء، يرددها لينظر أي العرب يقال لهم ماء، فسار النبي ﷺ بأصحابه وكان قصده أن يكتم أمره. وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله فإن الله عز وجل قال: ﴿فلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلق * خُلق من ماءٍ دافقٍ﴾[1] وكما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال للكافر الذي سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار وهو رجل يهديني السبيل، وقد صدق فيما قال رضي الله عنه فقد هداه وهدانا السبيل، ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام. وكما حكي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد: ما تقول في القرآن؟ فقال الشافعي: إياي تعني، قال: نعم، قال: مخلوق، فرضي خصمه

(١) سورة: الطارق، الآيتان: ٥ ـ ٦.

منه بذلك ولم يرد الشافعي إلا نفسه، وكما حكي عن ابن الجوزي رحمه الله تعالى أنه سئل وهو على المنبر، وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته وهم فريقان قوم سنية، وقوم شيعة فقيل له: من أفضل الخَلْق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، أم علي رضي الله عنهما؟ فقال: أفضلهما بعد مَنْ كانت ابنته تحته فأرضى الفريقين، ولم يرد إلا أبا بكر رضي الله عنه لأن الضمير في ابنته يعود إلى أبي بكر رضي الله عنه وهي عائشة رضي الله عنها وكانت تحت رسول الله ﷺ، والشيعة ظنوا أن الضمير في ابنته يعود إلى رسول الله ﷺ وهي فاطمة رضي الله عنها، وكانت تحت علي رضي الله عنه، فهذه منه جيدة حسنة وكلمة باتت جفون الفريقين منها وسنة. والله أعلم.

الفصل الثالث: في ذكر الفصحاء من الرجال

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم فزجوه وقال: يا صبي تتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت صبياً، فلستُ بأصغر من هدهد سليمان، ولا أنتَ بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال: ﴿أَحَطْتُ بما لم تُحِطْ به﴾[1] ثم قال: ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى. ولما أفضَتِ الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز فنظر إلى صبي صغير السن وقد أراد أن يتكلم فقال: ليتكلم من هو أسن منك، فإنه أحق بالكلام منك. فقال الصبي:

يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت فتكلم. فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذي مَنّ علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا، ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة فقد أمنا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمنا جورك بعدلك. فنحن وفد الشكر والسلام. فقال له عمر رضي الله عنه: عظني يا غلام، فقال: يا أمير المؤمنين إن أناساً غرهم حلم الله، وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه فتزل قدمك، وتكون من الذين قال الله فيهم: ﴿ولا تكُونوا كالذين قالوا سَمِعْنا وهم لا يَسْمَعُونَ﴾[2] فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة فأنشدنه من عمر رضي الله تعالى عنه:

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمَنْ هو جاهلُ
فإن كبيرَ القَوْم لا علمَ عنده ... صغيرٌ إذا التفَّتْ عليه المحافلُ

وحكي أن البادية قحطت في أيام هشام فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة وعليه شملتان فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلّا دخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً، فقال: يا أمير المؤمنين إن للكلام نشراً وطياً، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه وقال له: انشره لله درك. فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عبادة، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين. فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذراً فأمر للبوادي بمائة ألف

(١) سورة: النمل، الآية: ٢٢.
(٢) سورة: الأنفال، الآية: ٢١.

دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال هل: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين فخرج من عنده وهو من أجلِّ القوم.

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره[1]، فبعث إليه يقول إن لك عندي ألف ناقة، على أنك تدخل في طاعتي، فوفد عليه وكان صغير الجثة فاقتحمته عينه وتنقصه فقال: مهلاً أيها الملك، إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان، ثم أنشأ يقول:

يـا أيهـا الملـكُ المـرجـوُّ نـائلُـهُ ... إنـي لمـن معشـرٍ شُـمٍّ الـذرى زُهْـرِ
فـلا تغـرنـك الأجسـام إن لنـا ... أحـلامَ عـادٍ وإن كنـا إلـى قصـرِ
فكـم طـويـلٍ إذا أبصَـرْتَ جثتـه ... تقـول هـذا غـداة الـروع ذو ظفـرِ
فـإن ألـمَّ بـه أمـرٌ فـأفظعـه ... رأيتـه خـاذلاً لـلأهـل والـزمـرِ

فقال: صدقت فهل لك علم بالأمور؟ قال: إني لأنقض منها المفتول، وأبرم منها المحلول، وأجيلها حتى تجول، ثم أنظر فيها إلى ما تؤول، وليس للدهر بصاحب، من لا ينظر في العواقب. قال: فتعجب النعمان من فصاحته وعقله، ثم أمر له بألف ناقة. وقال له: يا سعد إن رحَلْتَ وصلناك، فقال: قرب الملك أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها. فأنعم عليه وأدناه وجعله من أخص ندمائه.

وحكي أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله عن الشيء، ولا شيء، وعن دين لا يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنة، وعن صلاة كل شيء وعن أربعة فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أم له، وعن قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها له، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة، ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظاعن ظعن مرة واحدة، ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شيء تنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس، وغد وبعد غد، وعن البرق والرعد وصوته، وعن المحو الذي في القمر. فقيل لمعاوية: لست هناك، ومتى أخطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل، فكتب إليه فأجابه: أما الشيء فالماء، قال الله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[2] وأما لا شيء فإنها الدنيا، تبيد وتفنى، وأما دين لا يقبل الله غيره فلا إلٰه إلا الله، وأمَّا مفتاح الصلاة، فالله أكبر، وأما غرس الجنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأما صلاة كل شيء، فسبحان الله وبحمده، وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا في أصلاب الرجال، وأرحام النساء، فآدم، وحواء، وناقة صالح، وكبش إسماعيل، وأما الرجل الذي لا أب له فالمسيح، وأما الرجل الذي لا أم له فآدم عليه السلام. وأما القبر الذي جرى بصاحبه فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر، وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق. وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فبطن البحر. حين انفلق لبني إسرائيل، وأما الظاعن الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، فجبل طور سيناء كان

(١) عيل صبره: نفد وانتهى.
(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٣٠.

بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطار الله تعالى بجناحين، فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم، وإلا ألقيته عليكم فأخذوا التوراة معذرين، فرده الله تعالى إلى موضعه فذلك قوله تعالى: ﴿**وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم**﴾[١]، وأما الشجرة التي نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التي أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام، وأما الشيء الذي تنفس بلا روح فالصبح قال الله تعالى: ﴿**والصبح إذا تنفس**﴾[٢]. وأما اليوم فعمل، وأمس فمثل، وغد فأجل، وبعد غد فأمل، وأما البرق فمخاريق بأيدي الملائكة تضرب بها السحاب، وأما الرعد فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته زجره، وأما المحو الذي في القمر فقول الله تعالى: ﴿**وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة**﴾[٣] ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل. ودعا بعض البلغاء لصديق له فقال: تمم الله عليك، ما أنت فيه وحقق ظنك فيما ترجوه وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

وحكي أن الحجاج سأل يوماً الغضبان بن القبعثري عن مسائل يمتحنه فيها، من جملتها أن قال له: من أكرم الناس؟ قال: أفقههم في الدين، وأصدقهم لليمين، وأبذلهم للمسلمين وأكرمهم للمهانين، وأطعمهم للمساكين، قال: فمن ألأم الناس؟ قال: المعطي على الهوان، المقتر على الإخوان، الكثير الألوان. قال: فمن شر الناس؟ قال: أطولهم جفوة، وأدومهم صبوة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قسوة. قال: فمن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف، وأقراهم للضيف، وأتركهم للحيف. قال: فمن أجبن الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف، المنقبض عن الزحوف، المرتعش عند الوقوف، المحب ظلال السقوف، الكاره لضرب السيوف. قال: فمن أثقل الناس؟ قال: المتفنن في الملام، الضنين[٤] بالسلام، المهذار[٥] في الكلام، المقبقب[٦] على الطعام، قال: فمن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحساناً، وأقومهم ميزاباً[٧]، وأدومهم غفراناً، وأوسعهم ميداناً، قال: لله أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب، أحسيب هو، أم غير حسيب؟ قال: أصلح الله الأمير، إن الرجل الحسيب يدلك أدبه، وعقله وشمائله، وعزة نفسه، وكثرة احتماله وبشاشته، وحسن مداراته على أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله، والنذل الجاهل يجهله، فمَثَلُهُ كمَثَلَ الدرَّة، إذا وقعت عند من لا يعرفها، ازدراها، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة، فقال الحجاج: لله أبوك فما العاقل والجاهل؟ قال: أصلح الله الأمير العاقل الذي لا يتكلم هذراً، ولا ينظر شزراً، ولا يضمر غدراً، ولا يطلب عذراً، والجاهل هو المهذار في كلامه، المنَّان بطعامه، الضنين بسلامه، المتطاول على إمامه، الفاحش على غلامه، قال: لله أبوك فما الحازم الكيّس؟ قال: المقبل على شأنه التارك لما لا يعنيه، قال: فما العاجز؟ قال: المعجب بآرائه، الملتفت إلى ورائه، قال: هل عندك من النساء خبر؟ قال: أصلح الله الأمر إني بشأنهن خبير، إن شاء الله تعالى؛ إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الاضلاع، إن عدلتها انكسرت، ولهن

---

(١) سورة: الأعراف، الآية: ١٧١.
(٢) سورة: التكوير، الآية: ١٨.
(٣) سورة: الإسراء، الآية: ١٢.
(٤) الضنين: البخيل.
(٥) المهذار: كثير الكلام في غير نفع.
(٦) المقبقب على الطعام: الذي يجتمع فوق الطعام بكلتيه.
(٧) الميزاب: قناة للماء والأولى أن تكون: ميزان بالنون.

جوهر لا يصلح إلا على المداراة، فمن داراهن انتفع بهن، وقرَّت عينه، ومن شاورهن، كدرن عيشه، وكدرت عليه حياته وتنغصت لذاته، فأكرمهن أعفهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا زلن عنها، فهن أنتن من الجيفة. فقال له الحجاج: يا غضبان إني موجهك إلى ابن الأشعث وافداً فماذا أنت قائل له؟ قال: أصلح الله الأمير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه. فقال: إني أظنك لا تقول له ما قلت، وكأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، قال: كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لساني، وأجريه في ميداني.

قال: فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان. فما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عيناً عليه، أي جاسوساً وكان يفعل ذلك مع جميع رسله، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث، قال له: إن الحجاج قد هَمّ بخلعك، وعزلك فخذ حذرك، وتغدى به، قبل أن يتعشى بك، فأخذ حذره عند ذلك، ثم أمر للغضبان بجائزة سنية، وخلع فاخرة، فأخذها وانصرف راجعاً فأتى إلى رملة كرمان في شدة الحر والقيظ وهي رملة شديدة الرمضاء فضرب قبته فيها، وحط عن رواحله، فبينما هو كذلك إذا بأعرابي من بني بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصداً نحوه وقد اشتد الحر، وحميت الغزالة وقت الظهيرة، وقد ظمىء ظمأ شديداً فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال الغضبان: هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها، وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابي؟ قال: أصابتني الرمضاء، وشدة الحر والظمأ، فتيممت بقبتك أرجو بركتها. قال الغضبان: فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم، قال: أيتهن تعني؟ قال: قبة الأمير ابن الأشعث، قال: تلك لا يوصل إليها، قال: إن هذه أمنع منها، فقال الأعرابي: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: آخذ. فقال: وما تعطي. قال: أكره أن يكون لي اسمان، قال: بالله من أين أنت؟ قال: من الأرض، قال: فأين تريد؟ قال: أمشي في مناكبها. فقال الأعرابي وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر: أتقرض الشعر؟ قال: إنما يقرض الفأر. فقال: أفتسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة. فقال يا هذا إئذن لي أن أدخل قبتك. قال: خلفك أوسع لك. فقال: قد أحرقني حر الشمس. قال: ما لي عليها من سلطان. فقال الرمضاء أحرقت قدمي. قال: بل عليها تبرد. فقال إني لا أريد طعامك ولا شرابك. قال: لا تتعرض لما لا تصل إليه ولو تلفت روحك. فقال الأعرابي: سبحان الله. قال: نعم من قبل أن تطلع أضراسك. فقال الأعرابي: ما عندك غير هذا؟ فقال: بلى هراوة أضرب بها رأسك. فاستغاث الأعرابي: يا جار بني كعب. قال الغضبان: بئس الشيخ أنت فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث. فقال الأعرابي: ما رأيت رجلاً أقسى منك، أتيتك مستغيثاً فحجبتني وطردتني هلاّ أدخلتني قبتك وطارحتني القريض. قال: ما لي بمحادثتك من حاجة. فقال الأعرابي: بالله ما اسمك ومن أنت؟ فقال: أنا الغضبان بن القبعثري. فقال: اسمان منكران خلقاً من غضب. قال: قف متوكئاً على باب قبتي برجلك هذه العوجاء. فقال: قطعها الله إن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشنعاء. قال الغضبان: لو كنت حاكماً لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة، ورجلك في الرمضاء قائمة. فقال الأعرابي: إني لا أظنك حرورياً. قال: اللهم إجعلني ممن يتحرى الخير ويريده. فقال: إني لأظن عنصرك فاسداً. قال: ما أقدرني على إصلاحه. فقال الأعرابي: لا أرضاك الله ولا حياك. ثم ولى وهو يقول:

لا بـارَكَ اللَّـهُ فـي قـومٍ تسـودهـم ... إنـي أظُنُّـك والـرحمٰـن شيطـانـا
أتيـت قبَّـةُ أرجـو ضيـافَتـهُ ... فـأظهـرَ الشيـخُ ذو القـرنيـن حـرمـانـا

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابي، قال له

الحجاج: يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان؟ قال: أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش بها ضعاف هزلاء إن كثروا جاعوا، وإن قلوا ضاعوا. فقال له الحجاج: ألست صاحب الكلمة التي بلغتني أنك قلت لابن الأشعث تَغَدَّ بالحجاج قبل أن يتعشَّى بك، فوالله لاحبسَنَّك عن الوساد ولأنزلنَّك عن الجياد، ولأشهرنَّك في البلاد. قال: الأمان أيها الأمير فوالله ما ضرَّت من قيلت فيه، ولا نفعت من قيلت له. فقال له: ألم أقل كأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، اذهبوا به إلى السجن. فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ما شاء الله. ثم إن الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فأعجب بها، فقال لمن حوله: كيف ترون قبتي هذه وبناءها؟ فقالوا: أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة نضرة بهجة، قليل عيبها كثير خيرها. قال: لِمَ لَمْ تخبروني بنصح؟ قالوا: لا يصفها لك إلا الغضبان. فبعث إلى الغضبان فأحضره، وقال له: كيف ترى قبتي هذه وبناءها؟ قال: أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك، لا لك ولا لولدك، لا تدوم لك، ولا يسكنها وارثك ولا تبقى لك وما أنت لها بباق. فقال الحجاج: قد صفق الغضبان ردوه إلى السجن، فلما حملوه قال: **﴿سبحان الَّذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مُقرنين﴾**[١]. فقال: أنزلوه. قال: **﴿ربِّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خيرُ المنزلين﴾**[٢]. قال: اضربوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض، قال: **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾**[٣]. فقال: جروه فأقبلوا يجرونه وهو يقول: **﴿بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾**[٤] فقال الحجاج: ويلكم اتركوه فقد غلبني دهاء وخبثاً، ثم عفا عنه وأنعم عليه وخلى سبيله.

وحدث الزبير قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون وقد كانت ضياعهم أُخذت. فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، محمد بن عبد الملك بين يديك، سليل نعمتك، وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن له في الكلام؟ فقال: تكلم. فقال: الحمد لله رب العالمين ولا إله إلا الله رب العرش العظيم، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين ونستمتع الله لحياطة ديننا ودنيانا، ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، فإن الحق لا تعفو آثاره، ولا ينهدم مناره، ولا ينبت حبله ولا يزول ما دمت بين الله وبين عباده والأمين على بلاده.

يا أمير المؤمنين، هذا المقام مقام العائذ بظلك، الهارب إلى كنفك، الفقير إلى رحمتك وعدلك، من تعاود النوائب، وسهام المصائب، وكلب الدهر وذهاب النعمة، وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب، ويبرد غليل القلوب، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفاد منها نعم آبائه الطيبين، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين، وقد قمت مقامي هذا متوسلاً إليك بآبائك الطيبين، وبالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدي ناصر المسلمين، والمنصور من كل الظالمين، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفاً[٥] إليك بالطاعة التي أفرغ عليها غُصني واحتنكت[٦] بها سني، وريش بها جناحي متعوذاً من شماتة الأعداء وحلول البلاء ومقارفة الشدة بعد الرخاء.

---

(١) سورة: الزخرف، الآية: ١٣.
(٢) سورة: المؤمنون، الآية: ٢٩.
(٣) سورة: طه، الآية: ٥٥.
(٤) سورة: هود، الآية: ٤١.
(٥) مزدلفاً: متقرباً.
(٦) احتنك: من الحِنكة والخبرة.

يا أمير المؤمنين، قد مضى جدك المنصور، وعمك صالح بن علي جدي وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، أن الدهر ذو اغتيال قد يقلب حالاً بعد حال، فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار والعجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدراً بعد صفو، ومراً بعد حلو، وهبنا نعم آبائك اللاتي غذتنا صغاراً، وكباراً، وشباباً، وأشياخاً، وأمشاجاً[١] في الأصلاب، ونطفاً في الأرحام، وقدمنا في القرابة، حيث قدمنا الله منك في الرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطتك ووجوهنا قد عنت لطاعتك فأقلنا عثرتنا.

يا أمير المؤمنين، إن الله قد سهل بك الوعور، وجلا بك الديجور[٢] وملأ من خوفك القلوب والصدور، بل يردع الفاسق، ويقمع بك المنافق، فارتبط نعم الله عندك بالعفو والإحسان، فإن كل راع مسؤول عن رعيته، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها.

يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر، وقد قال الله جل ثناؤه وتعالت قدرته: ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾[٣] أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافي، ومنعه الكافي ثم أنشد يقول:

أميـــر المـــؤمنيـــن أتـــاك ركـــب ... لهـــم قـــربـــى وليـــس لهـــم تـــلادُ
هـــم الصـــدرُ المقـــدم مـــن قـــريـــشٍ ... وأنـــت الـــرأسُ تتبعـــك العبـــادُ
لقـــد طـــابَـــتْ بـــك الـــدنيـــا ولـــذَّتْ ... وأرجـــو أن يطيـــبَ بـــك المعـــادُ
فكيـــف تنـــالكـــم لحظـــاتُ عَيْـــنٍ ... وكيـــف يقـــلُّ ســـؤددك البـــلادُ

قال: فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة، والجوائز السنية، وأمر برد ضياعه، وقرب منزلته وأدناه ودفع إليه من المال ما أغناه.

ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء: ما حكي أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه، وله عليّ ما يتمناه، فقام إليه سويد بن غفلة فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين قال: هات. فقال: نعم يا أمير المؤمنين أنف. بطن. ترقوة. ثغر. جمجمة. حلق. خد، دماغ. رقبة. زند. ساق. شفة. صدر. ضلع. طحال. ظهر. عين. غبب. فم. قفا. كف. لسان. منخر. نغنوغ. هامة. وجه. يد. وهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين. فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين. فضحك عبد الملك وقال لسويد أسمعت ما قال؟ قال: أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثاً. فقال: هات ولك ما تتمناه. فابتدأ يقول: أنف، أسنان، أذن. بطن، بنصر، بزة، ترقوة، تمرة، تينة. ثغر، ثنايا، ثدي، جمجمة، جنب، جبهة. حلق، حنك، حاجب. خد، خنصر، خاصرة، دبر، دماغ، دراديز. ذقن، ذكر، ذراع. رقبة، رأس، ركبة. زند، زردمة، زب. ـ فهنالك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه ـ ساق، سرة، سبابة. شفة، شفر، شارب. صدر، صدغ، صلعة، ضلع، ضفيرة، ضرس. طحال، طرة، طرف.

---

(١) الأمشاج: الأشياء المختلطة.
(٢) الديجور: الظلمة.
(٣) سورة: النور، الآية: ٢٢.

ظهر، ظفر، ظلم. عين، عنق، عاتق. غبب، غلصمة، غنة. فم، فك، فؤاد. قلب، قفا، قدم. كف، كتف، كعب. لسان، لحية، لوح. منخر، مرفق، منكب. نغنوغ، ناب، هنٌ. هامة، هيئة، هيف. وجه وجنة، ورك. يمين، يسار، يافوخ. ثم نهض مسرعاً فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال: فعندها ضحك عبد الملك وقال: والله ما تزيدنا عليها شيئاً أعطوه ما يتمناه، ثم أجازه وأنعم عليه وبالغ في الإحسان إليه.

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء وكان على عتوه[١] وإسرافه جواداً، وكان إذا ضحك واستغرق في الضحك اتبع ذلك بالاستغفار مرات، وكان يطعم على ألف خوان[٢] وكان يطوف على الموائد، ويقول: يا أهل الشام مزقوا الخبز لئلا يعود إليكم ثانياً، وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال وذلك في كل يوم، وكان يقول: أرى الناس يتخلفون عن طعامي، فقيل له: إنهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا، فقال: قد جعلت رسولي إليهم كل يوم: الشمس إذا طلعت، وعند المساء إذا غربت.

وحكي عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته، وأولي النجدة من جنده، وقال: أيها الناس إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، واملولح عذبها[٣] وعظم خطبها، وظهر صرامها[٤]، وعسر إخماد نيرانها، فهل من ممهد لهم بسيف قاطع، وذهن جامع وقلب ذكي، وأنف حمي، فيخمد نيرانها، ويردع غيلانها، وينصف مظلومها ويداري الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد، وتأمن العباد. فسكت القوم ولم يتكلم أحد، فقام الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين أنا للعراق. قال: ومن أنت لله أبوك؟ قال: أنا الليث الضمضام، والهزبر الهشام، أنا الحجاج بن يوسف، قال: ومن أين؟ قال: من ثقيف كهوف الضيوف، ومستعمل السيوف. قال: اجلس لا أم لك فلست هناك، ثم قال: مالي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة؟ فلم يجبه أحد. فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجندل الفساق ومطفىء نار النفاق، قال: ومن أنت؟ قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف، معدن العفو العقوبة، وآفة الكفر والريبة. قال: إليك عني، وذاك فلست هناك، ثم قال: مَنْ للعراق فسكت القوم وقام الحجاج، وقال: أنا للعراق. فقال: إذن أظنك صاحبها، والظافر بغنائمها، وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة، فما آتيك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والاقتدار، والبسط والازورار، والإدناء والإبعاد، والجفاء والبر، والتأهب والحزم، وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلني قطعته، ومن نازعني قصمته، ومن خالفني نزعته، ومن دنا مني أكرمته، ومن طلب الأمان أعطيته، ومن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتي وعلامتي، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني، فإن كنت للأعناق قطاعاً، وللأموال جماعاً، وللأرواح نزاعاً، ولك في الأشياء نفاعاً، وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن مَنْ يقوم بهذا الأمرقليل. فقال عبد الملك: أنت لها فما الذي تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال. فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال: هيِّىء له من الجند شهوته، وألزمهم طاعته، وحذرهم مخالفته. ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك. فخرج الحجاج قاصداً نحو العراق.

---

(١) العتو: الإسراف في الجبروت.
(٢) الخوان: ما يوضع عليه الطعام.
(٣) املولح عذبها: تكدر وصار مالحاً.
(٤) الصِّرام: القطيعة.

قال عبد الملك بن عمير: فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة، إذا أتانا آت، فقال: هذا الحجاج قدم أميراً على العراق. فتطاولت الأعناق نحوه، وأفرجوا له عن صحن المسجد، فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء، متلثماً بها، ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذٍ ذوو حالة حسنة، وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته، ومواليه وأتباعه عليهم الخز، والديباج. قال: وكان في المسجد يومئذٍ عمير بن صابىء التميمي، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له: أسبه لكم؟ قال: أكفف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن صابىء وقال: لعن الله بني أمية حيث يولون، ويستعملون مثل هذا على العراق، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها. فوالله لو دام هذا أميراً كما هو ما كان بشيء. والحجاج ساكت ينظر يميناً وشمالاً. فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئاً، فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم؟ فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير. فكشف عن لثامه ونهض قائماً، فكان أول شيء نطق به أن قال: والله إني لأرى رؤوساً أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها، وإني لآرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، فعجم[1] عيدانها، فوجدني أمرّها عوداً، وأصلبها مكسراً فرماكم بي، لأنكم طالما أثرتم الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأنكلن بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلاً في كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت، فإياي وهذه الزرفات[2] والجماعات، وقيل قال، وكان ويكون. يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها غداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوثقوا واستقيموا، واعملوا ولا تميلوا، وتابعوا وبايعوا، واجتمعوا واستمعوا، فليس مني الإهدار والإكثار، إنما هو هذا السيف، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم. ثم إني وجدت الصدق مع البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، ووجدت الفجور في النار، وقد وجهني أمير المؤمنين بعد إليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني لأقسم بالله لا أجد رجلاً يتخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه. يا غلام إقرأ كتاب أمير المؤمنين. فقرأ: بسم الله الرحمٰن الرحيم من عبد اللّه عبد الملك بن مروان إلى مَنْ بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم. فلم يرد أحد شيئاً، فقال الحجاج: أكفف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئاً عليه، هذا أدبكم الذي تأدبتم به، وأما والله لأؤدبنكم أدباً غير هذا الأدب، إقرأ يا غلام. فقرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام، ثم نزل بعد ما فرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم، فجعلوا يأخذونها، حتى أتاه شيخ يرعش فقال: أيها الأمير إني على الضعف كما ترى، ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار، أفتقبله بديلاً مني؟ فقال: نقبله أيها الشيخ. فلما ولى قال له قائل: أتدري من هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا عمير بن صابىء الذي يقول:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول فوطىء في بطنه، فكسر ضلعين من أضلاعه. فقال

(١) عجم: اختبر.
(٢) الزرافات: التجمعات.

الحجاج: ردوه، فلما ردوه قال له الحجاج: أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار، إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحاً للمسلمين، يا سياف اضرب عنقه، فضرب عنقه. وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر.

ومن حكايات الحجاج: ما حكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم، وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق[١] عليه وكتب إليه: أما بعد، فقد بلغني عنك إسراف في الدماء وتبذير في العطاء، وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية، وفي العمد بالقود[٢]، وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها، ثم تعمل فيها برأيي، فإنما هو مال الله تعالى ونحن أمناؤه، فإن كنتَ أردتَ الناس لي فما أغناني عنهم، وإن كنتَ أردتَهُم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك عني أمران، لين وشدة فلا يؤمننك إلا الطاعة، ولا يوحشنك إلا المعصية، وإذا أعطاك الله عز وجل الظفر، فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها ... وتطلب رضائي بالذي أنا طالبُهْ
فإن ترَمني غفلة قرشية ... فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وإن تَرَ مِنّي وثبة أموية ... فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تأمنني والحوادث جمة ... فإنك تجزي بالذي أنت كاسبه
فلا تعد[٣] ما يأتيك مني وإن تعد ... يقمن به يوماً عليك نوادبه
فلا تمنعن الناس حقاً علمته ... ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فإنك إن تعطي الحقوق فإنما ... النوافل شيء لا يثيبك[٤] واهبه

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين: أما بعد فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتلي العصاة إسرافاً، وإعطائي المطيعين تبذيراً، فليضمن لي أمير المؤمنين ما سلف. والله ما أصبت القوم خطأ فأديهم، ولا ظلمتهم عمداً فأقاد بهم، ولا قتلت إلا لك، ولا أعطيت إلا فيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنا لا أبغي رضاك وأتقي ... أذاك فليلي لا تُوارَى[٥] كواكبُهْ
وما لامرىء بعد الخليفة جُنة[٦] ... تقيه من الأمر الذي هو راكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة ... لقامت عليه بالصياح نوادبه
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه ... واقصِ[٧] الذي تسري إليّ عقاربه

(١) شق عليه: عزّ عليه وصعب الأمر.
(٢) القوَد: القصاص.
(٣) تعدُ: تتحدى وتتجاوز.
(٤) يثيبك: يؤجرك، يجازيك.
(٥) توارى: تخفى.
(٦) جُنة: وقاية وستر.
(٧) أقصي: أبعد.

وأعطِ المواسي في البلاء عطية ... لرد الذي ضاقت عليّ مذاهبه
فمن يتقي بؤسي ويرجو مودتي ... ويخشى غدا والدهر جم نوائبه
وأمري إليك اليوم ما قلت قلته ... وما لم تقله لم أقل ما يقاربه
ومهما أردت اليوم مني أردته ... وما لم ترده اليوم إني مجانبه
وقف بي على حد الرضا لا أجوزه ... مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
وإلا فدعني والأمور فإنني ... شفيق رفيق أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك. قال: خاف أبو محمد صولتي ولن يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى، فلمن يلومني على محبته. يا غلام أكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عيناً بما هناك. وفي مروج الذهب للمسعودي: أن أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام ولدته مشوهاً لا دبر له، فثقب له دبر، وأبى أن يقبل الثدي، وأعياهم أمره فيقال إن الشيطان تصور له في صورة الحارث بن كلدة حكيم العرب، فسألهم عن ذلك فأخبره مخبر من أهله. فقال لهم: اذبحوا له تيساً، وألعقوه من دمه وأولغوه فيه ثم أطلوا به وجهه. ففعلوا ذلك، فقبل الثدي، فلأجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه، أن أكبر لذاته سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يقدر غيرهُ عليها، وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحارث بن كلدة، فدخل عليها يوماً في السحر فوجدها تخلل أسنانها، فطلقها فسألته لم فعل؟ فقال لها: إن كنت باكرت الغداء فأنت شرهة، وإن كان بقايا طعام بفيك فأنت قذرة. فقالت: كل ذلك لم يكن، وإنما تخللت من شظايا السواك. فقال: قضي الأمر. فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج.

وقيل إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عشرين سنة، ومات له ثلاث وخمسون سنة وكان من عنف السياسة، وثقل الوطأة، وظلم الرعية، والإسراف في القتل، على ما لا يبلغه وصف. أحصي من قتله الحجاج بأمره، سوى من قتله في حروبه، فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً، ووجد في سجنه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد. وقيل للشعبي: أكان الحجاج مؤمناً؟ قال: نعم بالطاغوت. وقال: لو جاءت كل أمة بخبيثها، وفاسقها، وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم.

وقد مضى القول في ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم، وما أعان الله تعالى عليه واستحضرته من أخبارهم، وأنا قائل، إن شاء الله تعالى ما استحضرته من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان.

ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن

حكي عن أبي عبد الله النميري أنه قال: كنت يوماً مع المأمون وكان بالكوفة فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية[1] القد، قاعدة النهر كأنها القمر ليلة تمامه، وبيدها قربة قد ملأتها ماء وحملتها

(١) خماسية القد: طويلته (أي خمسة أشبار حوالى ٦٥ سم).

على كتفها وصعدت من حافة النهر، فانحل وكاؤها[١] فصاحت برفيع صوتها: يا أبت أدرك فاها، قد غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها، قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها. فقال لها المأمون: يا جارية من أي العرب أنت؟ قالت: أنا من بني كلاب. قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب؟ فقالت: والله لست من الكلاب، وإنما أنا من قوم كرام، غير لئام يقرون[٢] الضيف، ويضربون بالسيف. ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال: أو عندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم، قال لها: أنا من مضر الحمراء. قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسباً، وأعظمها حسباً، وخيرها أماً وأباً، ممن تهابه مضر كلها. قالت: أظنك من كنانة. قال: أنا من كنانة. قالت: فمن أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً[٣]، وأطولها في المكرمات يداً ممن تهابه كنانة وتخافه. فقالت: إذن أنت من قريش. قال: أنا من قريش. قالت: من أي قريش؟ قال: من أجملها ذكراً وأعظمها فخراً، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه، قالت: أنت والله من بني هاشم، قال: أنا من بني هاشم. قالت: من أي هاشم؟ قال: من أعلاها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن تهابه هاشم وتخافه. قال: فعند ذلك قبلت الأرض وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين. قال: فعجب المأمون وطرب طرباً عظيماً، وقال: والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاقته العساكر فنزل هناك وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه فزوجه بها، وأخذها وعاد مسروراً. وهي والدة ولده العباس والله أعلم.

وحكي أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها فوصف للحجاج حسنُها فأنفذ إليها يخطبها وبذل لها مالاً جزيلاً وتزوج بها، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم، ودخل بها. ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة، وكانت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرآة وتقول:

وما هندُ إلا مهرة عربية ... سليلة أفراس تحلَّلها بغلُ
فإن ولَدَتْ فحلاً فللهِ درُّها ... وإن ولَدَتْ بغلاً فجاء به البغلُ

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به. فأراد الحجاج طلاقها فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر، وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه. وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزد عليهما. فدخل عبد اللَّه بن طاهر عليها فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج: كنت فبنت[٤] وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله. فقالت: اعلم يا ابن طاهر، إنا والله كنا فما حمدنا، وبِنَّا، فما ندمنا، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها، بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف.

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف لها جمالها، فأرسل إليها يخطبها فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه: اعلم يا أمير المؤمنين أن الإناء ولغ فيه الكلب. فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك

---

(١) الوِكاء: ما يشد به رأس القربة.
(٢) القِرى: إكرام الضيف.
(٣) المحتد: الأصل.
(٤) بنتِ: بَعُدتِ ويقصد طلاقها.

من قولها وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً، إحداهن بالتراب فاغسلي الإناء يحل الاستعمال. فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه: يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد إلا بشرط فإن قلت: ما هو الشرط؟ قلتُ: أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشياً حافياً بحليته التي كان فيها أوّلاً. فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك. فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب، وامتثل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز، فتجهزت وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند. فركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواريها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها، فجعلت هند تتواغد[١] عليه، وتضحك مع الهيفاء دايتها، ثم إنها قالت للهيفاء: يا داية اكشفي لي سجف[٢] المحمل[٣]. فكشفته، فوقع وجهها في وجه الحجاج فضحكت عليه فأنشأ يقول:

فإن تضحكي مني فيا طول ليلة ... تركت فيها كالقباء المفرج[٤]

فأجابته هند تقول:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمَتْ ... بما فقدناه من مالٍ ومن نشبِ
فالمال مكتسبٌ والعز مرتجعٌ ... إذا النفوسُ وقاها الله من عطبِ

لم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة. فرمت بدينار على الأرض، ونادت: يا جمال إنه قد سقط منا درهم فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا ديناراً، فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم، قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم، فعوّضنا الله ديناراً، فخجل الحجاج وسكت، ولم يرد جواباً، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها، وكان من أمرها ما كان، وقد وجدت في بعض النسخ ما هو أوسع من هذا، ولكن اقتصرت على القليل منه، إذ فيه الغرض والله أعلم.

وقيل إن جارية عرضت على الرشيد ليشتريها فتأملها وقال لمولاها: خذ جاريتك فلولا كلف بوجهها، وخنس بأنفسها لاشتريها. فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة: يا أمير المؤمنين اسمع مني ما أقول. فقال: قولي. فأنشدت تقول:

ما سلم الظبيُ على حسنه ... كلا ولا البدرُ الذي يوصفُ
الظبيُ فيه خنسٌ بيّنٌ ... والبدرُ فيه كَلَفٌ يُعرفُ

قال: فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها.

وقيل: عرضت على المأمون جارية بارعة في الجمال، فائقة في الكمال غير أنها كانت تعرج برجلها، فقال لمولاها: خذ بيدها وارجع، فلولا عرج بها لاشتريتها. فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين، إنه في وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه، فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها.

---

(١) تتواغد: تقوم بحركات هازئة.
(٢) السجف: الطرف. وهو هنا قريب من الستائر.
(٣) المحمل: الهودج.
(٤) القباء المفرج: الثوب مشقوق الطرف.

ومن ذلك ما حكي أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب فعبر يوماً تحت جوسق[١] ببستان، فرأى جارية ذات وجه زاهر، وكمال باهر، لا يستطيع أحد وصفها فلما نظر إليها ذهل عقله، وطار لبه، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه، وكانت الجارية عزباء وكتب إليها رقعة يعرض إليها بالزيارة في جوسقها فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليه مع العجوز عنبراً، وجعلت فيه زر ذهب، وربطت ذلك على منديل وقالت للعجوز: هذا جواب رقعته، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه وتحير في أمره، وكانت له ابنة صغيرة السن، فلما رأت أباها متحيراً في ذلك. قالت له: يا أبت أنا علمت معناه قال: ما هو لله درك؟ قالت:

أهـدت لـك العنبـرَ فـي جـوفـه ... زرّ مـن التبـرِ خفـيّ اللحـام
فـالـزرُّ والعنبـرُ معنـاهمـا ... زر هكـذا مختفيـاً فـي الظـلام

وحكي إن طائفة من بني تميم كانوا يكسرون أول الفعل، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة فناداها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل. فقال: لأي شيء يا بني تميم ما تكتنون[٢]. فقالت: ولم لا نِكتني وكسرت الفعل. فضحك عليها وقال: أفعل إن شاء الله: فخجلت من قوله، وتغير وجهها، وأرادت أن توقعه كما أوقعها فقالت له: هل تحسن شيئاً من العروض. قال نعم. قالت قطع لي:

حـولـوا عنّـا كنيستكـم ... يـا بنـي حمـالـة الحطـب

فقطعه فوقف على عن، ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه وأضحكت أصحابه فقال: ويحك لم تبرحي حتى أخذت بثأرك.

وحكي أن شاعراً كان له عدو، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق، إذا هو بعدوه، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة، فقال له: يا هذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت، ولكن سألتك الله إذا قتلتني امض إلى داري وقف بالباب وقل: ألا أيها البنتان إن أباكما. فقال سمعاً وطاعة. ثم إنه قتله، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ووقف بالباب وقال: ألا أيها البنتان إن أباكما. وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل: ألا أيها البنتان إن أباكما. أجابتاه بفم واحد، قتيل خذا بالثأر ممن أتاكما[٣]. ثم تعلقتا بالرجل ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرره، فأقر بقتله، فقتله والله أعلم.

وقيل بينما كثير عزة ماراً بالطريق يوماً، إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي، فقال لها: تنحي عن الطريق. فقالت له: ويحك، ومن تكون؟ قال: أنا كثير عزة، قالت: قبحك الله، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق، قال: ولم؟ قالت: ألست القائل:

ومـا روضـة بـالحسـن طيبـة الثـرى ... يمـجُّ النـدى جثجـاثهـا وعـرارهـا[٤]
بـأطيـب مـن أردان[٥] عـزة مـوهنـا ... إذا أوقـدت بـالمجمـر اللـدن نـارهـا

---

(١) الجوسق: القصر.
(٢) تكتنون: تتخذون الكوانين (الأفران).
(٣) هذا شطر البيت الذي بدأه والدهما كما ترى.
(٤) الجثجاء والعرار: من نباتات طيبة الريح.
(٥) الأردان مفردها ردن: الكُم.

ويحك يا هذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها. لمَ لا قلت مثل سيدك امرىء القيس:

وكنت إذا ما جئت بالليل طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

فقطعته ولم يرد جواباً.

وقيل: أتي الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. فقالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج. قال: ومن هو صاحبي؟ قالت: فرعون، استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا ارجئه وأخاه. وأتى بأخرى من الخوراج فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه، فقيل لها: الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين إليه. فقالت: إني لأستحي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.

وحكى ابن الجوزي في كتابه المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما ولي عمر رضي الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقة[1] أزواج النبي ﷺ خمسمائة درهم، وأن فاطمة رضي الله عنها كان صداقها على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أربعمائة درهم. فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضي الله عنها. فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمائة درهم، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين. فهاب الناس أن يكلموه، فقامت امرأة في يدها طول فقالت له: كيف يحل لك هذا والله تعالى يقول: ﴿وآتيتم أحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾[2] فقال عمر رضي الله عنه: امرأة أصابت ورجل أخطأ. وقيل جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل. فقال لها: نِعْمَ الرجل زوجك، وكان في مجلسه رجل يسمى كعباً فقال: يا أمير المؤمنين إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عن فراشه، فقال له: كما فهمت كلامها أحكم بينهما. فقال كعب: عليّ بزوجها. فأحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك. قال: أفي أمر طعام أم شراب؟ قال: بل في أمر مباعدتك إياها عن فراشك. فأنشأت المرأة تقول:

يا أيها القاضي الحكيم أنشده ألهي خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لا يرقده فلست في أمر النساء أحمده

فأنشأ الزوج يقول:

زهدني في فرشها وفي الحلل أني أمرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطول وفي كتاب الله تخويف يجل

فقال له القاضي:

إن لها عليك حقاً لم يزل في أربع نصيبها لمن عقل
فعاطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثنى، وثلاث، ورباع أفلك ثلاثة أيام بلياليهن. لها يوم وليلة. فقال

(١) مفردها صِداق: وهو المهر.
(٢) سورة: النساء، الآية: ٢٠.

عمر رضي الله عنه: لا أدري من أيكم أعجب، أمن كلامها أم من حكمك بينهما؟ أذهب فقد وليتك البصرة.

حكاية المتكلمة بالقرآن: قال عبد اللَّه بن المبارك رحمه الله تعالى: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في بعض الطريق، إذ أنا بسواد على الطريق فتميزت ذاك فإذا هي عجوز عليها درع من صوف، وخمار من صوف، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقالت: ﴿**سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم**﴾[١] قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ قالت: ﴿**مَنْ يضلل الله فلا هاديَ له**﴾[٢] فعلمت أنها ضالة عن الطريق. فقلت لها: أين تريدين؟ قالت: ﴿**سبحانَ الذي أسْرَى بعبدِهِ ليلاً من المسجدِ الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾[٣] فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس. فقلت لها: أنت منذ كم في هذا الموضع؟ قالت: ﴿**ثلاث ليال سوياً**﴾[٤] فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين. قالت: ﴿**هو يطعمني ويسقين**﴾[٥] فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟ قالت: ﴿**فلم تجدوا ماءً فتيَمموا صعيداً طيباً**﴾[٦] فقلت لها: إن معي طعاماً فهل لك في الأكل؟ قالت: ﴿**ثم أتموا الصيامَ إلى الليل**﴾[٧] فقلت: ليس هذا شهر رمضان، قالت: ﴿**مَنْ تطوَّع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم**﴾[٨] فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السفر. قالت: ﴿**وأن تصُوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون**﴾[٩] فقلت: لم لا تكلميني مثل ما أكلمك. قالت: ﴿**ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد**﴾[١٠] فقلت فمن أي الناس أنت؟ قالت: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾[١١] فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حل. قالت: ﴿**لا تثريبَ عليكُمُ اليوم يغفر الله لكم**﴾[١٢] فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة. قالت: ﴿**وما تفعلوا من خير يعلمه الله**﴾[١٣] قال: فأنخت ناقتي. قالت: ﴿**قل للمؤمنين يغُضُّوا من أبصارهم**﴾[١٤] فغضضت بصري عنها وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿**وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم**﴾[١٥] فقلتَ لها: اصبري حتى أعقلها. قالت: ﴿**ففهمناها سليمان**﴾[١٦] فعقلت الناقة وقلت

---

(١) سورة يّس، الآية: ٥٨.
(٢) سورة: الأعراف، الآية: ١٨٦.
(٣) سورة: الإسراء، الآية: ١.
(٤) سورة: مريم، الآية: ١٠.
(٥) سورة: الشعراء، الآية: ٧٩.
(٦) سورة: النساء، الآية: ٤٣.
(٧) سورة: البقرة، الآية: ١٨٧.
(٨) سورة: البقرة، الآية: ١٥٨.
(٩) سورة: البقرة، الآية: ١٨٤.
(١٠) سورة: قّ، الآية: ١٨.
(١١) سورة: الإسراء، الآية: ٣٦.
(١٢) سورة: يوسف، الآية: ٩٢.
(١٣) سورة: البقرة، الآية: ١٩٧.
(١٤) سورة: النور، الآية: ٣٠.
(١٥) سورة: الشورى، الآية: ٣٠.
(١٦) سورة: الأنبياء، الآية: ٧٩.

لها: اركبي. فلما ركبت، قالت: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾[١] قال: فأخذتُ بزمام[٢] الناقة وجعلت أسعى وأصيح. فقالت: ﴿واقصد في مشيك وأغضض من صوتك﴾[٣] فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر فقالت: ﴿فاقرءوا ما تيسَّر من القرآن﴾[٤] فقلت لها: لقد أوتيتم خيراً كثيراً ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾[٥] فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تَبْدُ لكم تسؤكم﴾[٦] فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة. فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾[٧] فعلمت أن لها أولاداً فقلت: وما شأنهم في الحج؟ فقالت: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾[٨] فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب، والعمارات فقلت هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾[٩] ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾[١٠] ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾[١١] فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾[١٢] فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يديّ فقالت: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾[١٣] فقلت: الآن طعامكم عليّ حرام حتى تخبروني بأمرها. فقالوا: هذا أمنا، لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمٰن فسبحان القادر على ما يشاء. فقلت: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[١٤] والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سورة: الزخرف، الآية: ١٣ ـ ١٤.
(٢) الزِمام: المقود.
(٣) سورة: لقمان، الآية: ١٩.
(٤) سورة: المزمل، الآية: ٢٠.
(٥) سورة: البقرة، الآية: ٢٦٩.
(٦) سورة: المائدة، الآية: ١٠١.
(٧) سورة: الكهف، الآية: ٤٦.
(٨) سورة: النحل، الآية: ١٦.
(٩) سورة: النساء، الآية: ١٢٥.
(١٠) سورة: النساء، الآية: ١٦٤.
(١١) سورة: مريم، الآية: ١٢.
(١٢) سورة: الكهف، الآية: ١٩.
(١٣) سورة: الحاقة، الآية: ٢٤.
(١٤) سورة: الجمعة، الآية: ٤.

obeikandl.com

الباب الثامن: في الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك

قيل إن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له: هيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف على قوله:

معنُ بنُ زائدةَ الذي زادَتْ به ... شرفاً على شرفِ بنو شيبان

فقال: كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً ... بالسيفِ دون خليفةِ الرحمٰنِ
فمنعتُ حوزته[1] وكنت وقاءَهُ ... من وَقْعِ كلِّ مهنَّدٍ وسنانِ[2]

فقال: أحسنت والله يا معن، وأخر له بالجوائز والخلع. ووفد ابن أبي محجن على معاوية فقام خطيباً فأحسن، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه فقال له: أنت الذي أوصاك أبوك بقوله:

إذا متُّ فادفني إلى جنب كرمة ... تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنِّني في الفلاة فإنني ... أخافُ إذا ما متّ أن لا أذوقها

قال: بل أنا الذي يقول أبي:

لا تَسْألِ الناسَ ما مالي وكثرتُهُ ... وسائِلِ الناسَ ما جودي وما خُلُقِي
أعطي الحسامَ غداةَ الروعِ[3] حصَّتَهُ ... وعاملُ الرمحِ أرويه من العلقِ
وأطعنُ الطعنةَ النجلاءَ[4] عن عرضٍ ... وأكتمُ السرَّ فيه ضربةُ العُنُقِ
ويعلمُ الناسُ أني من سراتهم[5] ... إذا سما بصرُ الرعديدِ بالفرقِ[6]

فقال له معاوية: أحسنت والله ابن أبي محجن، وأمر له بصلة وجائزة.

وقيل: أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثي فقال له: ألست القائل:

ومنا شريدٌ والبطينُ وقعنبٌ ... ومنا أميرُ المؤمنين شبيبُ

---

(١) حوزته: ناحيته وما ضم.
(٢) السنان: الرمح أو الحاد من رأسه.
(٣) الروع: الخوف وهنا المعركة.
(٤) النجلاء: الكبيرة الواضحة.
(٥) سُراة القوم: أشرافهم ونبلاؤهم.
(٦) الرعديد: الجبان، والفرقُ: الخوف.